تيارا فلسفة الحقوق

المبادئ الفردية والاجتماعية

بقلم الاب فليكس سوانيون اليسوعي

باسكال يقول : ان للخير الاسمى ٢٨٨ تعريفاً ولقد ذُكِر في كان تعريف الحقوق ما لا يقل عن هذا العدد .

ان فلسفة الحقوق اشبه بميدان قتال ، واذا كان حقاً إنَّ احتكاك الافكار يولّد نورًا جديدًا فقد كان من نصيبنا ان يعترينا البهر . اما من حيث الواقع فان تضارب الآراء في هذا الشأن ما هو الّا ضباب تجد شمس الحقيقة بعض المشقة في اختراقه .

ويبدو تاريخ فلسفة الحقوق للوهلة الاولى كانه من جعجعات الادمغة ولكن اذا انعمنا الروية فيتضح لنا ان ثمّت ما يشبه المحورين قد دارت حولها المشادات واصبحا على ممر الاجيال قطبي التطوّر .

واراني لا احتاج الى التحدث عن اولئك الذين ينكرون وجود فلسفة حقوقية : كابيقور ومن حذا حذوه من خلفائه لان انكارهم الجازم ليس الّا مفهوماً فلسفيًا يستند الى جعل الحق قائمًا على القوة اما غيرهم فجميعهم يتأرجحون بين الفردية والاجتماعية .

ولم اتخذ على عاتقي بحث تاريخ هذين التعليمين وانما اردتُ ان ابسط لمحة خاطفة عنهما لاجلو احدهما بالاخر واوضحهما بذلك وابيّن الحاضر بالماضي .

وكما انه لا بد لنا اذا اردنا معرفة احدى الاغراس من ان نعرف خاصتها الجنسية التي تنزع الى استتمام نموّها بموجبها فكذلك نستطيع فهم اشكال الفردية والاجتماعية الاصلية اذا ما عرضناهما كما هما الان .

فما هي الفردية وما نفهم بها ؟ : ان الفرد الانساني هو كائن تام بذاته

حرٌ ومستقل بطبيعته . والبشر قد كوّنوا المجتمع على تفاوت في الحرية لان وجودهم سبق وجوده فلذلك هو غير طبيعي وتركيب اصطناعي من اجزاء متماسكة . والذي تزعمه كائناً اجتماعياً ليس الّا وهماً حقوقيًّا جسَّمه عقلنا .

ويدحض وجدان الافراد وحريتهم كل مركب متجسم لاحق وما من مبدإ حيوي يؤيد وجود هذا المركب من اجزاء ما برحت محتفظة باستقلالها التام .

وينجم من نظرية الكائن الاجتماعي هذه نتائج سنراها تنبثق شيئاً فشيئاً ،

اما الرأي المعاكس فباذا نسميه ؟ : لقد اطلقوا على اشكاله المتطرفة اسم (الدولة العضوية) «Organicisme» و(الاجتماعية في الدولة) «Etatisme» و (الامبراطورية المستبدة) «Césarisme» و (الدولة الجماعية) «Totalitarisme» الخ . . . وثمت من هذه الآراء رأي اشد اعتدالاً واعظم فائدة ولكن من سوء الحظ لم يجدوا له اسماً غير الاجتماعية «Socialisme» وهو الاسم الذي ينطبق عليه تمام الانطباق بالنظر الى اشتقاقه اللغوي وانا قد قصرنا معناه على تعليم خاص ما هو بالواقع الّا انحراف بلفظه عن معناه الاصلي وقد اخذ يستغله احد الاحزاب — وانني لا ارى سبيلاً الّا الاحتجاج على هذا التجاوز اللغوي — وسوف اطلق كلمة «اجتماعي» في بحثي هذا على التعليم الذي يؤيد اولية الاجتماع .

وها هي ذي خطوطه الرئيسية : ان الفرد الانساني هو اجتماعي بطبيعته اعني انه لا يكتمل الّا بغيره وهو بصفة كونه فرداً ليست انسانيته الا بجزأة مقسَّمة وما الانسان الحقيقي الّا جزء من الكل الاجتماعي سواء أكان ذلك من حيث حياته الحيوانية ام حياته العقلية — ولم يخرجه من حيوانيته المحض الا النطق وهو لا يدرس قواه الا في المجتمع وليست العلوم والفنون والصناعات والسعادة نفسها الّا امورًا اجتماعية وبما ان طبيعة الفرد هي بثابة اجزاء من المجموع فالكل الذي يتكون منها هو اذًا طبيعي اما الوجدان والحرية فليسا عائقين ليحولا دون هذا المركب وانما هما رابطتان من الروابط الشديدة التأثير .

وقد ترتب على نظرية الكائن الاجتماعي هذه نتائج مهمة نجمت عنها .

واننا سنعمد الان الى النظر في الاشكال التي اتخذتها على مر التاريخ

١ — العهد اليوناني الروماني القديم

ا – العردية

كان شكل الفردية المعروف في الغرب الشكل الابيقوري. فعندما شرع ابيقور (٣٤٢—٢٧٠) يعلّم وذلك حوالي سنة ٣٣٨ اي بعد موت ارسطو بستة عشر عاماً كانت البلاد اليونانية برمتها من اثينا الى ثيبة فاسبارطه قد سقطت تحت سيطرة مقدونية فانقطعت فيها الحياة السياسية والقومية واخذ الايغال في القومية بالزوال فانقطع ابيقور ليحيا لنفسه بعد ان سئم الجدل المتافيزيقي الذي استغرق مجهودات الجيل السابق الجبارة وشرع بالبحث فقط عن قاعدة عملية للسلوك مكتفياً باسنادها الى احد المناهج السابقة لسقراط. فشيَّد علم الاخلاق على نظرية ديوقريطس الذرية التي مؤداها ان المجتمع هو مجموعة من الذرات الانسانية كانت اتفاقاً وتربطها بعضها ببعض المنفعة، فالقاعدة الواحدة للحياتين الخاصة والعامة هي البحث عن اللذة العظمى الممكنة لانها الغرزة الطبيعية. وما العدل الّا في توازن المنافع وما الحق الا عقد لتحقيق هـذا التوازن اما الحياة العامة فمصدر الملل فلذلك يجب التخلص منها باسرع ما يمكن.

وليست الابيقورية الّا فلسفة جميع ضروب الانحطاط وهي التي كانت فلسفة الانغليس باللذائذ عند نهاية الجمهورية الرومانية والملكية الفرنسية.

وكان رفاق هذا الفيلسوف في روما (اتيكوس) «Atticus» و(هوراس) «Horace» وبعض الرجال السياسيين والانتهازيين وغواة الموسيقى والفنون. واسبغ لوكرس (٩٨ — ٥٥) Lucrèce على تعليم ابيقور وشاحاً رائعاً واضاف اليه علم اجتماع اشد اقناعاً. وقال في هذا الشأن: لقد قبع البشر ردحاً طويلاً من الزمن في حياتهم الانفرادية حتى تنظموا في ممالك تحولت الى طغيان ولم يطل به الوقت حتى كان مجلبة للثورة والفوضى. فلم يكن امام البشر للخروج من هذا المأزق الّا ان وضعوا « العقد الاجتماعي ».

« cf. De Natura Rerum, L. V, ٢٢, 928, 1134, 1141 »

ولقد خفَّف لوكرس بصفة كونه رومانياً حقيقياً من غلواء فرديته الاجتماعية بوطنية واقعية.

ب – الاجتماعية

يُعدّ افلاطون (٤٢٧ – ٣٤٧) جد الاشتراكية « Collectivisme » ومن اقواله في هذا السبيل ان المدينة هي جهاز عضوي طبيعي تكونت كما تكوّن الفرد تماماً .

والانفس الثلاث في الانسان : العقل الاسمى « νοῦς » والعقل الاوسط الحيواني « θυμός » والعقل المنحط النباتي « ἐπιθυμία » تقابلها الطبقات الثلاث الاجتماعية وهي طبقة الفلاسفة والمحاربين والمزارعين ، وكمال المدنية في وحدتها التي ينبغي لها ان تتحقق تمام التحقيق ولذلك لا بد اولاً من اخضاع الطبقات بعضها لبعض اخضاعاً كاملاً فيجب ان تقوم طبقة الفلاسفة في الرأس لان العقل هو الذي يسيّر العالم . ثانياً الغاء الاثرة (الانانية) بجميع ضروبها اي الغاء ما هو لك وما هو لي في كل الامور فليس من ملكية خاصة والمدينة عيلة واحدة فاطفالها ونساؤها شائعان بين الجميع .

والفرق بين اشتراكية افلاطون واشتراكية يومنا يقوم على ان افلاطون يريد ان يشيّد مملكة العقل والمحبة اما الآن فيريدون تشييد المساواة واستقلال الافراد المتبادل على الماديات . ونقد ارسطو (٣٨٤–٣٢٢) استاذه في كتابه السياسة (الجزء الثاني ف.ف ١–٢) نقداً رائعاً وقال في هذا الشأن: الوحدة ليست الخير الاسمى ولا الايقاع جمال الموسيقى الاسمى ، فالعيلة هي اساس المجتمع وفيها تتخذ المحبة جذورها لتمتد منها الى اقطار المدينة اما المنفعة الخاصة فهي حافز ضروري وما جمهورية افلاطون الا وهم من الاوهام .

وها هي ذي جمهوريته .

ان غاية الحياة الانسانية او السعادة في جوهرها هي العلم . وما من سبيل لبلوغ هذه السعادة الا بالمجتمع الذي لا يستطيع الافراد والعيال الازدهار الا فيه فذلك هو طبيعي ولا يعني قولنا هذا انه غريزي محض لان الانسان يفكر ويريد ما تطلبه طبيعته . وما على الجهود التي يبذلها المجتمع الا ان تنزع الى تعزيز الحياة العقلية ولا سيما حياة النخبة المفكرة فاحترام النظام الاجتماعي في سبيل المصلحة العامة هو العدل « κοινωνικὴ ἀρετή » خير الفضائل .

ولا محل في فسحة ارسطو للحق الفردي ولكن من دواعي الاسف انه اردف قائلًا ان اليونانيين هم الشعب الوحيد المتمدن في الارض وان الطبيعة تسمح بمطاردة العبد . ولقد رأينا ان الاوضاع السياسية بعد ارسطو لم تفسح المجال لضروب الجدل النظرية العليا فلذلك اصبحت الفلسفة عملية فقط . وبينما انحاز ابيقور الى انتهاج طريق اللذة السهل وانصرف بيرون «Pyrrhon» الى تأسيس مدرسة غواة الموسيقى والفنون فان بعض ذوي العقول السامية انحازوا الى تأييد العقل . وزينون مؤسس هذه المدرسة هو احد ابناء قبرص وهو فينيقي الاصل قد تبنى الاغريقية .

نعم لقد علّم زينون (٣٣٦ — ٢٦٤) في اثينا حوالي سنة ٢٩٢ في رواق مزدان بالزخرف والنقش (stoa) وناقض ابيقور في كل تعاليمه تقريباً ، ومن اقواله : ليس الانسان والعالم مجموعة متماسكة الاجزاء كان حدوثهما على سبيل الاتفاق وانما هما كائنات منظمة نسّقها العقل «Logos» الشامل الالهي الذي هو ضرب من الاثير الدقيق العاقل . فكل نفس هي جزء من هذا العقل ولذلك جميع البشر اخوان فالحدود السياسية والفوارق الاجتماعية مبتدعات اصطناعية وما القانون الّا تعبير العقل الشامل الالهي «Logos» فاذن هو شامل وطبيعي . اما الحقوق الوضعية الخاصة فهي من المبتدعات الاصطناعية وليس للحكيم الّا وطن هو الكون .

وافضت به محبته للانسانية جمعاء الى ان يلتقي مع فردية ابيقور . وقد تبيّن الاخاء الانساني واقام الدليل على صحته بفلسفة متافيزيقية ، اما عبادة الانسانية البعيدة فتعوّض عن خدمة القريب الذي يعايشنا والزينوني انسانٌ فوق الانسان وهو لا يختلط بالبشر الّا اقل ما يمكنه الاختلاط بهم . وكانت هذه الفلسفة السامية المتزهدة اقل شعبية من الابيقورية ومن جراء مرورها بروما اتخذت ميزة اشد انسانية .

وقد اعارها شيشرون (١٠٦ — ٤٣) «Cicéron» اولا صوته الجهوري . ففي منتصف القرن الاول قبل المسيح وحوالي السنة الخمسين كانت الجمهورية الرومانية تسير في طريق الانحلال . وبسبب اعادة تشييدها تشييداً واضحاً منذ عهد سيلا المستبد (٨٢ — ٧٨) فقد نزلت بها الضربة القاصمة سنة ٦٠ بتأسيس

الديكتاتورية الثلاثية . وبعد وفاة كراسوس (٥٣) « Crassus» لم يبق من ذلك المثلث الا قيصر وبومبيوس ، وعقب موت بومبيوس قامت تحت ستار الديموقراطية الامبراطورية المستبدة استبداداً مطلقاً (Césarisme) لان قيصر عبر نهر ربيكون « Rubicon » سنة الـ ٤٩ وعُيّن سنة الـ ٤٥ ديكتاتوراً مدى الحياة وفي ذلك العهد ظهر في روما مؤلفان عظيمان في فلسفة الحقوق: الجمهورية (de Republica) ، والقانون (de Legibus) وواضعها شيشرون وقد بسط في الاول نظريته حول سلطة الجمهورية في الوقت الذي كانت تسير فيه الى الانهيار وفي الثاني نظريته حول القانون والحقوق بينما كانت تتآزر الدكتاتورية والفوضى على تجاهل القانون .

وكان شيشرون فارساً وديعاً ومحامياً كبيراً ومن ثم رجلاً سياسياً فعُيّن قنصلاً وهو في الثالثة والاربعين من عمره وأطلق عليه لقب «اب الوطن» بسبب انقاذه له من الفوضى (يذكرني بوسوليني) ولكنه كان اقل لباقة وقوة من خصومه فعُزل ونُفي ، وبعد عودته الى روما في عهد الامبراطورية الثلاثية عُيّن بروقنصلاً في كيليكية وجعل نفسه محبوباً فيها على غير ما كانت عليه العادة.

ولقد شهد بعد موت قيصر قيام ديكتاتورية انطونيوس التي كانت شراً من سابقاتها فناضل مناضلة الشجعان والقى خطبه الرائعة «les Philippiques» ولقي حتفه في سبيل الدفاع عن قضية الحرية والعدل ، واذا ما تكلم حُقّ علينا ان نصغي الى اقواله .

ومردّ الفضل الى شيشرون في ايجاد اللغة الفلسفية اللاتينية التي نستشعر فيها شيئاً من شبابه ، ولقد دافع عن فلسفة زينون واكد امام الابيقوريين الذين يعتبرون الفضيلة والحقوق اصطلاحات نافعة مرنة ميزتهما المطلقة وعوّل على الاسباب نفسها التي اوردها الاستاذ ومما قاله في هذا الصدد : الانسان من اصل الهي وعقله يجعله نسيباً للآلهة ومن مواطنيها فهو اجتماعي بطبيعته كما يدلّل على ذلك الشبه الجوهري بينه وبين البشر والمحبة الغريزية التي يضمرها لهم اما الفوارق بين الافراد فناجمة عن الفساد الطبيعي وليس من الطبيعة اما الانسان فيشعر في نفسه انه مواطن للناس برمتهم . « Civem totius mundi quasi unius urbis » (de Legibus, I. ch, 10, 11, 23)

ومع ذلك لم يبلغ به الحد الى انكار الوطن الموضعي (ibid. II. 1) ولقد قال : ان الحقوق هي النظام الاجتماعي وهدفها وحدة الجميع (ad communicandum... justos natura nos esse factos (ibid. ch. 12)

فهي اذًا طبيعية بجوهرها لا صلة لها باية معاهدة وباية منفعة كانت . (ibid. I, 15)

وكان شيشرون بعيدًا عن اتخاذ لهجة المجاملة للتدليل على نظرية المنفعة الابيقورية : « Jus esset latrocinari... si huec suffragiis aut scitis (décrets) multitudinis probarentur » (ibid. c. 16).

ومما قاله : ان اساس الحقوق المباشر هو المحبة : « Natura propinqui sumus ad diligendos homines, quod fundamentum juris est » (ibid. c. 15)

وهذا ما يسفر عن ان ما يأمر به القانون هو طبيعي فاذًا هو شامل وضروري لا يتغير وسابق لكل تشريع وضعي فالقانون هو عقل الحكيم الذي وجد تعبيرًا عن ذاته ولم يزد عليه ما كتبه شيئاً . « Ante nata quam scripta, orta simul cum mente divina » (ibid. L. II, c. 4)

وهو امر العقل الشامل اما القوانين البشرية فليست الا احكاماً للتنفيذ (ibid. c. 6) فاذا ابتعدت عن القانون الطبيعي كانت لصوصية محضاً فمهمة القاضي اخطر شأنًا من مهمة القانون . « Dici potest magistratum legem esse loquentem, legen autem mutum esse magistratum » (ibid. L. III. c. 1)

انما لنظرية لا ينقصها المظهر على رغم ما فيها من ثلمات . نعم ان فيها ثلمات : اولها واشدها خطورة عدم استقرارها . اجل لم يسبق لاحد قديماً ان تكلم على الحقوق وكان افصح من هذا المحامي الكبير في مدافعاته ، ولكن أترى نظرية واحدة من نظرياته الكبرى لم تساوره يومًا الشكوك حولها الباعثة على القلق، فان عباراته الخطابية لا تنطبق دائمًا على اعماله وذلك خلا ما ينقصها من الدقة والبراعين وان كانت على الجملة فلسفة العقل الرشيد وقد اصطبغت بصباغ علم ما وراء الطبيعة الزينوني واعني بذلك انها مرتكزة على اساس سريع الانهيار . وزد على هذا ان شيشرون قد تجاهل طبيعة الحقوق الوضعية الحقيقية. وقد اغرق في اطرائها اغراقًا جعلها تغيب معه عن الابصار اذ انتزع منها النقط الانسانية القرضية بواقع الحال . فكان على شاكلة جميع الوثنيين

القدما. على رغم العبارات الشاملة التي ابدى بها رأيه اذ المحبة التي قال بها ضيّقة جد الضيق عنده عملياً « اي انها محبة كلامية اكثر مما هي عملية » « Censent antem sapientes sapientibus etiam ignotis esse amicos » (ibid. l. c. 44; et de Legibus l. IX. ch. 12).

ونرى فلسفة زينون تتخذ مع سينيكا « Sénèque » (٤ — ٦٥) لوناً جديداً . ومما ورد في كتاب « السياسة لارسطو ٣ — ٢ » العبارة التالية : « بالقانون الحكم للعقل وبدونه للطبيعة الحيوانية » .

ولقد صح قول ارسطو كل الصحة في العصر الذي عاش فيه سينيكا، اذ كان بالاستطاعة في عهد الاباطرة السابقين ايضاً التحدث عن الحقوق والمساواة اما في عهد نيرون فانقضى الامر ، وكان الفيلسوف استاذاً لهذا الامبراطور وعرفه عن كثب وذلك قبل ان يكون من ضحاياه

وعبارات سينيكا الاديب الطنانة تشير الى انه كان من الاسبان المثقفين ثقافة اغريقية وتوضح سبب احتقاره للمجتمع الروماني .

وعلى رغم كون سينيكا محامياً وفيلسوفاً كثيرون فقد قصر عمله على الفلسفة الاخلاقية لان السياسة كانت مغلقة في وجهه حتى كانت الفلسفة معه عملية اكثر من اي وقت مضى فكان مرشداً للنفوس ، اما رسائله الى الشاب لوسيليوس « Lucilius » فشهيرة .

وكان يرى ان علم الاجتماع يقوم على مبدأ التضامن العظيم الشامل ولذلك اعرب عن هذا الرأي بعبارة رائعة Membra sumus corporis magni, ... natura nobis amorem indidit mutuum et sociabiles fecit,... in commune nati sumus » (Lettre 95) .

واذا كان قد ارخص شؤون السوق الرومانية فلكونه اسبانياً « Patriam nobis mundum professi sumus » (de Tranquillitate c. 3) — «meliores erimus singuli» و

واستد سينيكا مفهوم ارسطو بصدد غاية الانسان : غاية الحياة هي العلم، واضاف الى مساوئ المدرسة الزينونية شيئاً من الكبرياء والاثرة (الانانية) المتأصلة وانما لنا ثمت ما يحملنا على الشك في صدقه كما نستشعر ذلك من ذرائعه

الخطايا استشعرا فيه ما فيه من الريب وكي نراه لا يتورع عمليا عن قبول فض الخلافات بطريقة التسوية او لا نراه قد اسدى ذلك الفتى نصيحته قائلا له ان يحتفظ بامواله ليتعود عدم الاهتمام لها

وكانت خاتمة حياته العادية ان مات ميتة الابطال اما تأثيره الذي كان ضئيلا في حياته فقد تدنى فورا الى الصفر بعد مماته .

ويعد من الرينونيين ايضا فيلسوفان اخران معروفان هما : ابيكتيت (٥٠ - ١٢٠) (Epictète) الذي وضع نظرية الحرية الداخلية ولم يتعرض للحرية الثانية والثاني مارك اوريل (١٢١ - ١٨٠) (Marc-Aurèle) الذي جهد جهده في ممارسة السلطة من دون ان يتفلسفها .

٢ ــ ما قدمه الشرق اليهودي المسيحي في هذا الباب

اثر الشرق على الفلسفة في اتجاه جديد اذ جعلها اشد عمقا بتقديمه لها في آن واحد اساسا متافيزيقيا ودينيا وطيدا . فالحقوق في معتقد اليهود دينية وفي جوهرها اجتماعية لان كلمة الله هي التي انشأتها فأخذ بها الشعب لا الافراد : ذلك الشعب الذي اختير لها واندفع اليها وكوفئ بها وعوقب بحسبها وغفرت له مساويه بموجبها

ولم يتفق لعبادة قانون قط ان رفعت الى منزلة اسمى من هذه المنزلة وانما كان قانونا موقتا سن لشعب تقوم مهمته في الحفاظ على ايمانه بالانتظار الوحي الجديد الحاسم وقد بلغ به الكبر عتيا ، اما الجديد الذي جاء به الانجيل فلم يكن بحثا نظريا وانما الحياة قبل كل امر اخر .

وتقوم هذه الحقيقة الحية على كون الحقوق السامية قد شيدت نهائيا على حكمة الله وارادته الالهية لا على « لوغوس » الكلمة النامضة اللاشخصية وانما على « لوغوس » الكلمة الحقيقية .

والخالق الذي صار انسانا وتجسد ليتم بشخصه كل عدل وليضع اساسا جديدا للاخاء الانساني وليكمل الحقوق الطبيعية بحقوق فائقة الطبيعة لا تنافي الاولى قد جعل منها اداة لغاية سامية كل السمو .

ولم تكن الفلسفة في غضون عهد الاباء الكنيسة لتتميز عن علم اللاهوت بيد ان الحياة المسيحية العملية ومباحثات الاباء النظرية قد افضت الى السير قدماً بالنظرية الاجتماعية الحقوقية ، ولا يعجز الاختصاصي الاتيان بالبرهان على ذلك .

واراني اعمد الى الانتقال الى الذي نظم هذه المواد التي كانت قد جمعت قبله

٣ ـ القديس توما الاكويني (١٢٢٦ ـ ١٢٧٤)

رأى القديس توما النور تحت سماء ايطالية الحاضية ومارس مهنة التعليم في باريس وبصفة كونه من ورثة الفلسفة اليونانية وروما القديمة فقد كان لاهوتياً وفيلسوفاً عقليًا مؤمناً بمعنى الكلمة الصحيح كما كان عالماً من علماء ما وراء الطبيعة دقيق الملاحظة اكثر مما يدور بخلدنا .

ولقد تبنى القديس توما نظرية علم الاجتماع على طريقة ارسطو ولم ينتهجها ليكون عبداً لها وانما اصلحها واكملها .

ونسخ بادئ بدء من نظرية علم الاجتماع عنصر الفردية فقال ان المجتمع لم يكن لاسعاد بعض المثقفين المحظوظين ولاستتمام كمالهم وانما الذي لا ريب فيه هو ان غاية الانسان الاخيرة هي المعرفة والغبطة والكمال نعم انها المعرفة التي هي اسمى من جميع معارف العلماء ، ولا يستطيع الانسان في هذه الارض الا ان يتأهب لها ولا سيما عن طريق المحبة التي هي في متناول الجميع .

وقد اعرب عن علاقة الفرد بالمجتمع بما يشير الى ماهيتها الغائية والتركيبية فقال ان المجتمع كلٌ طبيعي والفرد بطبيعته جزء من هذا الكل .

وان الجنس الحيواني هو حقيقة واقعية اسمى من الفرد واذا كان الانسان بنفسه الخالدة اسمى من المجتمع فذلك لا يحول دون ان يكون جزءاً منه في حياته الزمنية . وان غايته بصفة كونه احد اعضاء المجتمع هي الغبطة الناقصة الممكن تحقيقها في الارض . فهي اذًا شبيهة بغاية كل المجتمع فعليه ان يخضع نفسه لكل امر وان يضحي بها عند الحاجة في سبيل الدفاع عن هذه الغاية فالخير العام فوق الخير الخاص الذي يشتمل عليه .

ان الحقوق لامر اجتماعي ، وان مـا هو عدل ويأمر به العدل الاجتماعي ينطبق على الخير العام . اما الحقوق الفردية فلم يتعرض لها اكثر مما تعرض لها ارسطو ؛ وهو من الاجتماعيين .

ان القديس توما هو من فلاسفة القرون الوسطى المدرسيين وانا لم اورد الاستشهادات وانما ينبغي لنا ان نرى جميع فلسفته .

٤ ــ عصر النهضة والاصلاح

لقد رفعوا الفردية الى السماك الاعزل في القرن السادس عشر وذلك بعد ان جاءت جميع العوامل تعززها : من النهضة التي تقدّس الانسانية الى الاصلاح البروتستانتي الى الفوضى السياسية فاجتاحت جميع الاجواء وتماسكت جميع اشكالها الدينية والادبية والاخلاقية والاقتصادية والسياسية في تشابكها وعملت كلها معاً على تقويتها . فالاصلاح البروتستانتي وضع الانسان وجهاً لوجه مع الخالق[1] ، فالكنيسة ليست عندهم جسماً اجتماعياً منظوراً وانما هي جماعة الارواح وجملة المعدودين من قبل . وجعلت حريةُ البحث السلطة الكنسية بدون فائدة . ولقد اعترت السلطة المدنية ازمة ايضاً وهي الازمة التي عززها لوتير في المانيا اولاً وقواها عندما قادها الاضطلاع باعباء المصالح الدينية حتى ما كاد ينقضي بعض الوقت لتشتعل الثورة باسم الدين على الامراء فأخضعوا سلطتهم لحرية البحث واكتشفوا انها تستمد منشأها من الشعب ، وقد تبنّت الرابطة الكاثوليكية هذا التعليم عندما تصبح طاعة الملك خطراً على الايمان .

وفي الادب تهيء اهاجي رابليه (Rabelais) واعتماد الطبيعة في استلهامه كل شيء منها ولم تعد شكوك مونتاين Montaigne جواً صالحاً للفلسفة .

وحسبنا ان نقرأ الفصلين الاولين عن كتاب القوانين لسوارز De Legibus « Suarez » de لنعلم ما احرزته فكرة الفردية من غنم منذ عهد القديس توما .

1) G. NEYRON : *L'individualisme et la société spirituelle*, in *Revue Apologétique*, t. 65, (1937). p. 385.

واليك فيما يلي نقطة الانطلاق ومحور فكرة هذا الكتاب الضخم .

« Jus est facultas quaedam moralis quam unusquisque habet vel circa rem suam vel ad rem sibi debitam ». (L. I, ch. 2 et L. II, ch. 17).

هذه هي الحقوق الفردية التي اجلسوها على عرش العلم ، ولقد اخذ عليه بعضهم نظريته الديموقراطية في اصل السلطة بيد انها ليس فيها شيء من الفردية قط وإن غالى بعض المقالاة في ذكر ميزة ارادة ذي السلطان في امر منشأ السلطة .

وعندما كلفه السفير البابوي في مدريد ان ينقض نظرية حق الملك الالهي التي توسل بها جاك الاول ملك انكلترا ليبرر الموانع التي تحول دون وصوله الى العرش « كما فعل من قبل الاباطرة وفيليب الجميل » وضع سوارز تعليماً وهو تعليم « Vittoria » الذي يحاكي تقريباً تعليم القديس بيلارمان « Bellarmin ».

وهناك لاهوتي اخر دو لوغو « de Lugo » من جمعية الآباء اليسوعيين علّم في روما واشتهر فيها وقد رقّاه البابا اوربانوس الثامن الى رتبة كاردينال سنة ١٦٤٣ قد عرّف الحقوق الفردية بقوله التالي :

«Praelationem quamdam moralem qua hic homo praefertur moraliter aliis in usu talis rei propter peculiarem connexionem quam res habet cum eo ».

وانه لتعريف لا يسطع كل السطوع ولكنه كان ايضاً نقطة الانطلاق لكتابه « de Justitia ».

والى اي شيء آلت اجتماعية الاقدمين ؟ نعم ان لها بعض الانصار . منهم الطوباوي توماس مور بطابعه المبتكر الشريف ، الذي مات في سبيل الايمان الروماني سنة ١٥٣٥ فقد وصف مثله الاعلى في جمهوريته (ايتوبيا) Utopie التي لا وجود لها وقد استوحى جمهوريته من افلاطون وخاصة من الانجيل .

وفي القرن التالي ظهرت مدينة الشمس لكامبنيلا (١٥٦٨—١٦٣٩) ومن ثم انزوت الاجتماعية في جوّ الحلم .

(له صلة)